الزاوية فضاء للتفاعلات السوسيو ثقافية:

دراسة ميدانية لزاوية سيدي عمر بالقصر قفصة

Al-Zāyiwa; a space for sociocultural interactions :

a field study of Zāyiwat Sidi Amor in Elgsar Gafsa

د. محمد أحمد، جامعة قفصة-تونس

ملخص: تتضمن هذه الورقة العلمية دراسة أنثروبولوجية حول المكونات الإجتماعية والثقافية لفضاء زاوية سيدي عمر بن عبد الجواد بالقصر قفصة (الجنوب التونسي)، حيث تعمل هذه الدراسة الميدانية المعتمدة على تقنية المقابلة على كشف الخصوصيات السوسيو ثقافية لهذا المعلم الصوفي مع إبراز أهم التحولات التي لازمت المضمون المادي واللامادي الذي لا زال يحرّك سلوكيات الوافدين على هذه الزاوية الطرقية.

الكلمات المفتاحية: التصوّف، الزاوية ، الولي الصالح ،التفاعل، فضاء سوسيوثقافي

Abstract: This paper represents an anthropological attempt that interests in the social and cultural aspects of the shrine (Zāwiya) of Sidi Omar bin Abd Al-jawād in Gafsa (Southern Tunisia), This field study examines the sociocultural specificities of this Sufi center, highlighting the most Prominent transformations that have been related to the behavior of this mystical site's followers.

Key words: sufism, shrine (Zāwiya), saint, interaction, sociocultural space.

مقدمة:

تعتبر هذه الدراسة محاولة أنتروبولوجية في فهم الحياة الثقافية لبعض الفاعلين الإجتماعيين بمنطقة الجنوب التونسي، وهم أهل زاوية سيدي عمر بن عبد الجواد بالقصر قفصة، وتسعى هذه الدراسة إلى فهم علمي للرمزية الإجتماعية والثقافية التي ميزت فرقة العكارمة(أي أهل الزاوية)، ذلك أن الغاية المركزية لهذا البحث مصوّبة نحو إختراق الحقل الرمزي الخاص بهذه المجموعة الإثنية، حقل تؤلفه الأساطير والخرافات والإحتفالات بأشكالها المختلفة، وبالتالي المضي في مسلك تفكيك الشفرات الخاصة بهذه الرموز، في إطار الكشف عن ما يختزنه المخيال الجماعي من تصورات ومعاني ومعتقدات إرتبطت بشخصية الولي الصالح أو الجد المؤسس (سيدي عمر بن عبد الجواد).

إن الاهتمام بمسألة الإعتقاد في الأولياء الصالحين وفي زيارة مقاماتهم الصوفية مرجعه بالأساس أن هذه الظاهرة هي ظاهرة متجذرة في ثقافة الإنسان المسلم عموما وفي ثقافة المواطن التونسي كعضو من هذه الثقافة، كما أن هذه الممارسات الدينية الشعبية قد بقيت متواصلة ومتعايشة مع الأفراد في مجتمعنا اليوم رغم التحديات التي واجهتها مؤسسة الزاوية "التونسية" في الفترة المعاصرة وقلصت من حظوظ وجودها مثل إنتشار الوعي بين عامة الناس ومقاومة وجود هذه المؤسسة من طرف السلطة السياسية ومن طرف الحركات الدينية الأصولية، وهذه المقاومة التي ميّزت هذه المؤسسة الدينية التقليدية تحيل نظرنا إلى معطى هام ألا وهو قيمة الجوانب الروحية في حياة المسلم حتى ولو كان في إطار هذه الصورة الشعبية، فالدين وكما أجمعت أغلب الدراسات الأنثروبولوجية هو ضرورة إجتماعية وثقافية وفطرة إنسانية، هذا بالإضافة إلى أن الإنسان اليوم أصبح أحوج إلى البعد الروحي أكثر مما مضى لتحقيق توازنه النفسي والثقافي في ظل التقدم التكنولوجي المادي الذي نعيشه اليوم.

إن هذا البحث يندرج ضمن الأنثروبولوجيا الدينية أو الأنثروبولوجيا الرمزية التي تعيد الإعتبار بصورة واضحة للبعد الديني أو الروحي مع تقدم الحضارات وهيمنة المكننة والتكنولوجيا الحديثة، ضف إلى ذلك أن هذا البحث يهدف إلى إضافة رقما في حجم الدراسات العربية التي تناولت بالدرس تراثنا العربي الإسلامي، فأغلب الكتب والبحوث المنتشرة في رفوف مكتبات الجامعات العربية كتبت بعقول ولغات وأيادي أجنبية.

إن التركيز في هذه الدراسة على زاوية العكارمة(أو زاوية سيدي عمر بن عبد الجواد) مرجعه بالأساس ما ينسب إلى فرقة العكارمة من صفة "الشرفة"، وهي صفة تجعلهم يختلفون عن بقية العروش في القصر، حيث يؤكد العكارمة على سلالتهم المنحدرة من الساقية الحمراء منبع الشرفاء القادمين من المغرب الأقصى إلى تونس ومؤسسو زوايا الأولياء الصالحين بالمنطقة.

1. الولي الصالح في المغرب العربي:

مصطلح الولي الصالح أو المرابط مصدره اللغة العربية الكلاسيكية وأساسا من لفظ "مرابط" والتي تعني الفرد الذي يعيش داخل الرباط وجمعه المرابطون، وهو إسم إرتبط بالخلافة الإسلامية التي سادت في المغرب وإسبانيا خلال القرنين الحادي والثاني عشر ميلادي، وقد أعتبر هذا المصطلح في دول شمال إفريقيا عن حركة سياسية ودينية مثل "الشرفة" في المغرب الأقصى وتستند هذه الحركة على أفكار شعبية وخاصة منها الأفكار المهديّة، وتعتمد على ممارسات شعبيّة تقوم بالأساس على إعتقادات باطلة وتخضع لتأثير بعض الأفكار التقليديّة مثل أن "الولي هو حبيب الله"، وهو قادر على فعل المعجزات ولذلك يقام له نصب أو مقام سواء كان هذا الولي متوفي أو على قيد الحياة(Emile,Dermenghem 1954, p 48)، وتصطبغ العناصر المادية القريبة من ضريحه بقدسيته".

ويمكن أن يقف المتمعّن جيدا في البحث على إرتباط وثيق بين مفهوم المرابط أو الولي الصالح ومفهوم الحركة الصوفية أو ما يطلق عليها بالطرق حيث أعتبرت الطرق المرابطية مزجا بين الثقافية الشعبية المتعلقة بالأولياء الصالحين والطرق الصوفية التي تتجنّب هذه الإعتقادات القديمة وتحمل بعض الطرق المرابطية طابعا كونيا مثل الطريقة القادرية والتي يمثلها تلامذة عبد القادر الجيلاني (توفي سنة1166م) الولي الصالح لبغداد والذي يعتقد فيه الكثير من الزوار في شمال إفريقيا، كما أن الكثير من العبيد والقبائل السوداء التي دخلت الإسلام إنضموا إلى هذه الطرق وغيّروا معتقداتهم وتقاليدهم وفق هذا التوجه، وقد برزت الصوفية كحركة دينية مناهضة للإسلام(الذي يمثله الفقهاء) وكذلك لسلطة الخلافة، وفي نظر هذه الحركة سيّدنا علي زوج فاطمة بنت الرسول"صلى الله عليه وسلم" وأب الحسن والحسين هو شخصية مقدسة لأنه تلقى نورا، وهو مصدرا للمعرفة والأسرار الإلهية.

إن إختيار الولي وبروزه يتم حسب مسار معقد تتداخل فيه العديد من العوامل، منها رغبة المعني بالأمر وكفاءاته وإرادة الجماعات وتقديرها لمصالحها وملائمة الظرفية وحتى تطابق الصدف"(مصطفى التليلي، 2000، ص33).

فالصورة التي تعطى عن الولي يساهم فيها بممارساته لكن المحدد فيها هو ما تحمله عنه الجماعات من أفكار حتى وإن كان ذلك مخالفا للواقع أو من قبيل الخيال، وحول هذا الجانب يقول ارنست كلنير "عندما تجلّ القبيلة(أو أي جماعة) شخصا وتعامله كولي فإنها تدرّ عليه العطاء فيسهل عليه أن يتحلى بالكرم وحسن الضيافة كما يكون بوسعه أن يظل مسالما وأن يترفع عن الإهانة، هكذا تتشكل الخصال التي تعتبر بعد حين من علامات الإصطفاء الرباني وهي السخاء والمسالمة، وإذا لم يحظ الولي بمثل هذه المعاملة فإن السخاء يؤدي إلى الفقر والمسالمة تعرضه للإعتداء، فيتجلى بوضوح أنه لا يحظى بالبركة على هذا المنوال يحصل التطابق بين إختيار البشر والإصطفاء الرباني، فإرادة القبيلة أو أي جماعة معبّر عنها بتمكين الشخص المختار من إكتساب الصفات التي تظهر في ما بعد على أنها علامات الإصطفاء السماوي "(إرنست كلنير، 1988، ص51).

وتعتبر "الطـــاعة أهم ركن في علاقة المريد بشيخه وهو المستوى الذي راهنت عليه السلطة الإستعمارية الفرنسية في تعاملها مع المشايخ في تونس لإحتوائهم وتوظيفهم حتى تكسب من ورائهم الأتباع الذين لا يعصون لهم أمرا"(التليلي العجيلي، 1992، ص32)، ومن المظاهر الرمزية لرضا الشيخ عن المريد هو أن يسمح له بإرتداء "الخرقة الصوفية" وهي خرقة إرتداها الشيخ من قبله أو أنه مسها بيده المباركة، وهي خرقة قاتمة اللون تتحمل الكثير من الأوساخ وتعطي للمريد صفة الفقير الذي يحتقر هذه الدنيا وما فيها، ففي الشعر الفارسي كان يشبه البنفسج بالصوفي"الذي يجلس جلسة معتدلة، واضعا رأسه على ركبته، متدثرا ثوبه الأزرق القاتم، متواضعا بين زهور البستان البهيجة، وفي العصور اللاحقة(Henry Corbin, 1969,p166) ، كانت بعض الطوائف تختار ألوان ثيابها طبقا للمقام الصوفي الذي يعيشه أفرادها.

أما فيما يتعلق بمفهوم الزاوية، فإن هذا المصطلح يعبّر في الإسلام الشعبي عن "فضاء للخدمات الإجتمـــاعية"(Mondher Kilani, 1992, p88)، لتقديم المساعدات، والحماية والعلاج النفسي، ومكان للتعابير الروحية.

وإن كانت دائرة المعارف الإسلامية قد حاولت ضبط مصطلح الزاوية بتتبع مراحل تطوره من مسجد صغير" منعزل "إلى طائفة من الأبنية ذات طابع ديني تتكون من غرفة للصلاة بها محراب (مسجد/جامع) وضريح لأحد المرابطين أو الأولياء تعلوه قبة، ومدرسة لتحفيظ القرآن(والعلوم الدينية) وغرف للضيوف والحجاج والمسافرين والطلبة(مجانا) وقرافة تشمل قبور الذين أوصوا في حياتهم بأن يدفنوا فيها مبرزة -إضافة إلى دورها الديني هذا- تلعب دورا سياسيا في المناطق البعيدة عن مقر الحكومة المركزية، مقارنة إياها بصومعة الراهب المسيحي في القرون الوسطى، فإن معناها اللغوي قد يكون أكثر دقة وشمولا إذ نجد إضافة إلى المعنى العام (ركن البناء /الزاوية) معنيين، أولهما إجتماعي (زوى الشيء :جمعه، وأنزوى القوم :تضاموا ، وزوى عنه الشر، طواه و صرفه).

وثانيهما ديني" (زوى الدهر القوم، ذهب بهم، لذا يمكن القول إن الزاوية ذات الأساس الديني تقوم بدور إجتماعي مهم فهي مؤسسة نفوذها الترابي واسع تؤطر الناس(الجمع والتضام) وتؤمنهم(زوى عنه الشر) وتعظهم(زوى الدهر القوم)"(المنجد في اللغة، 1961، ص312)، وقد نشأ هذا المصطلح بناء على فكرة الرباط حيث يشير هذا الأخير إلى فعل ربط أو شدّ مثل شد الخيل إلى مكان أو زاوية ما، مئذنة، وإطلاق لقب "سيدي" عليه من قبل الأجيال المتعاقبة الراغبة في الإستفادة من بركته"(مصطفى التليلي، 2000، ص339)، الصنف الثاني من الأولياء يتمثل في شخصيات التابعين أو الفقراء الذين لازموا "الشيخ" في حياته وقد خولت لهم مناصبهم(المقدم، الشاوش والوكيل) بعد ذلك من تولي رتبة الولي الصالح، أما التصنيف الثالث الذي يمكن أن يطبق على رتبة الولي أو الشيخ فيتعلق بفكرة الجد المؤسس للقبيلة أو العرش، فالإعتقاد في هذه الفكرة يبني داخل أذهان الأفراد التابعين لهذا الجد قدسية حول شخصه تتدعم خاصة عند إقترانها بالإنتماء للسلالة المرابطية بالمغرب العربي أو الإنتماء للسلالة الشريفة لعائلة الرسول صلى الله عليه وسلم.

ويمكن تعريف الزاوية من الناحية الوظيفية والتي تجسد ميشال كروزييه "بناء بشريا" (Michel Crozier,1977, p 23)، أي تحوي داخلها مجموعة من الفاعلين الإجتماعيين الذين يحملون إستراتيجيات تختلف بإختلاف توجهاتهم ومصالحهم، وفي هذا الإطار لا بد من الإشارة إلى هويّة الفاعلين الإجتماعيين المنتمين للزاوية الذين يحتلون مناصب تراتبية قد تتباين بين زاوية وأخرى، ومن أهمها رتبة الشيخ(الولي الصالح) أي مؤسس الزاوية ويليه "الوكيل" وهو المشرف والمسئول الأوّل على حراسة الزاوية ففي فترة وجود الولي الصالح على قيد الحياة يعد الوكيل الخادم الرسمي له في مختلف الوظائف من ضمان نظافة الزاوية وربط علاقات مع الحرفاء وقضاء الشؤون الوقتية، وعند وفاة الولي الصالح يواصل الوكيل نفس المهام بإسم الولي، وقد يتغير مصطلح الوكيل عند بعض سكان المغرب العربي إلى مقدم أو "مقدّم"، كما نجد مناصب أخرى داخل الزاوية وهو نائب الوكيل وكذلك أستاذ الحضرة ومحرك "الفقراء"، أما بقية الفاعلين الإجتماعيين المنتمين لهذه المؤسسة الصوفية فهم االتابعين أو المريدين أي المعتقدين شديد الإعتقاد بقدرات وكرامات الولي الصالح ثم أخيرا نجد عامة الناس أي "زيار" الزاوية.

ويرى الباحث صالح السيباني في مقال له بعنوان" الرباطات الإسلامية في ليبيا "أن للرباط مفهومان الأول لغوي، والثاني إصطلاحي وينقسم اللغوي إلى إسم ومصدر، فهو يعني ما يشد به من حيث الإسم، ومن حيث المصدر يعني الرباط والرابطة، أما كتب الحديث فهي تعني الإنفراد والإعتزاز والمعنى الإصطلاحي هو عبارة عن إحتباس النفس في الجهاد والحراسة، ويرى الباحث أن الرباطات ظهرت منذ بداية خلافة الخليفة عمر بن الخطاب عندما أكثر من الرباطات والمرتقبة على طول الثغور الشامية، أمـا في المغرب العربي فيعتبر حســان بن النعمان أول من أسس رباط قصر حسان غربي مدينة سرت، وكذلك هرثمة بن أعين قام ببناء رباط بمدينة طرابلس والمنستير سنة 804 م"(صالح السيباني، 2008).

كما إرتبط مفهوم الرباط بفكرة الحرب المقدسة أو الحرب ضد العدو الخائن أي أنه حمل قيمة دينية لأنه يجسد جهادا بإذن من الله مثل الجهـاد ضد القبائل الوثنية بين القرنين الثاني عشر والسادس عشر ميلادي، وقد ساهم مصطلح الرباط في خلق أو نشأة مفهوم الزاوية(ركن أو زاوية المنزل) وأصبـح كل من المفهومين يشيران إلى فكرة المرابـط أو الولي وهو مصطلح عرف قيمة وإمتدادا واسعا في منطقة شمال إفريقيا.

ومثل تلك المراكز(الزوايا) قد أطلق عليها في منطقة الشرق الإسلامي غالبا "خانقاهات" وكان هذا المصطلح مستخدما كذلك في مصر في العصور الوسطى، فقد كانت "خانقاه الصوفية" هناك تمثل مراكز حضارية ودينية، فقامت الحكومة بتأسيسها، أو وقفها أهل الخير من أصحاب النفوذ وتولوا دعمها، وكلمة زاويـة كانت تطلق على الوحدة الصغيرة كمقر معتزل يسكنه أحد المشايخ، وقد أطلق الأتراك على تجمع الصوفية"تكيه" أما كلمة رباط- وهي في الحقيقة مرتبطة بحصون العسكر المدافعين عن الإسلام- فقد كانت كذلك صالحة أن تطلق على مركز الجماعة، "وغالبا ما كان يرقد مؤسس المكان في قبره في نفس المكان، هذا إن لم يكن العكس صحيحا، وهو أن يبني

فيما بعد بنـاء حول المكـان المقدس الذي به قبر الشيخ الطريقة أو شيخ فرعها" (أنا ماري شيمل، 2006، ص263).

وقد إنتشرت في البلاد التونسية بداية من القرن الخامس هجري العديد من الحركات الدينية المسماة بالطرق الصوفية مثل: القادرية، التيجانية والرحمانية والعيسـاوية، وكان أغلب مؤسسيها ذوو أصول مغربية أو جزائرية وقد أحتضنت هذه الطرق الكثير من الزوايا منتشرة في مناطق مختلفة لكنها تشترك في إرتباطها الروحي والمادي(أحيانا) بالطريقة الأم، وقد عرفت الزوايا القادرية إنتشارا كبيرا بالبلاد التونسية وقد دخلت بلاد المغرب في حياة مؤسسها عبد القادر الجيلاني على يد تلميذه الروحي أبي مدين شعيب الأندلسي البجائي ،الذي إجتمع بالشيخ عبد القادر في مكة ولبس الخرقة بين يديه وأخذ الطريقة ثم رجع إلى إفريقية فإجتمع به من جملة من إجتمع أبو علي النفطي آخذا عنه القادرية(الضاوي خوالدية، 1994، ص 149)، ولقد أحصى شارل اندريه جوليان في فترة النصف الأول من القرن العشر"ما يقارب عن تسعة عشرة طريقة صوفية في المغرب العربي، تمثلها في تونس نحو خمس مائة زاوية ، ينتمي إليها ما يقارب ثلاث مائة ألف شخص من المريدين"(شارل أندريه جوليان ،2002، ص87).

وقد لعبت زوايا الصلحاء ولفترة لا بأس بها دورا هاما في الحياة الإجتماعية والثقافية للمجتمع التونسي خاصة في المناطق الريفية، ومن بين الوظائف الحيـاتية التي إرتبطت بمؤسسة الزاوية نذكر: "الدور الأمني لهذه المؤسسة التقليدية حيث ما لبثت الزاوية أن قدّمت العون والرعاية للكثير من المجموعات البشرية المنتمية لها أو القريبة منها، فقد قامت الزوايا في المجتمع الريفي بدور أمني تمثل خاصة في القيام بمهام التحكيم بين المجموعات القبلية المتصارعة، وفي ظل ضعف حضور الأجهزة الردعية والقضـائية للدولة يلعب شيوخ الزوايا دورا في حسم النزاعـات والفصل بين أطرافه"(محمد نجيب بوطالب، 2002، ص415).

2. **تعريف زاوية سيدي عمر بن عبد الجواد**

حسب الذاكرة المكتوبة والشفوية لفرقة العكارمة(أهل الزاوية) يعد الولي الصالح سيدي عمر بن عبد الجواد(عاش في القرن السابع عشر ميلادي) قطبا من الأقطاب حيث نجد له ما يقارب الخمس مائة تلميذ ومريد ومرابط، منهم الولي الصالح المعروف سيدي علي بن عون، ويعد سيدي عمر بن عبد الجواد(دائما وفق الذاكرة العكرمية) من السلالة الشريفة فقد رحل من المغرب إلى تونس(جهة قفصة بالجنوب التونسي) وهام فيها متنقلا من مكان إلى مكان وعديد الوثائق في المغرب وفي تونس تؤكد انتساب العكارمة إلى الأشراف ويتمتع بعديد الكرامات إلى يومنا هذا(وقع العثور في أحد المنازل بالقصر على مخطوط ممزق، غير تام ومجهول الناسخ يتناول قصة إدريس وهروبه إلى المغرب وقد حكم فاس وتلمسان ثم تفرق أبناءه في كل أنحاء الوطن العربي وربما يكون سيدي عمر أحد أحفاد إدريس)، وتعتبر حضرة "بابا" عمر من أبرز الحضرات في الجنوب التونسي والتي تقام له كل ليلة جمعة، ويزار يوميا للتبرك وتهدى له

الودائع والذبائح وهو الولي الوحيد في مدينة قفصة الذي يأتونه في ليلة الجمعة فقط(يوم الحضرة) ما يقارب الألف زائر للتمتع بسماع ما نظم له من ذكر ومديح للرسول (صلى الله عليه وسلم).

وترى الرواية العكرمية أنه عندما توفي الحسين بن علي بن أبي طالب هاجر أخوه الحسن إلى المغرب وتزوج فيها، وينتسب سيدي عمر بن عبد الجواد إلى هذه السلالة الشريفة عن طريق الأدارسة، وقد قدم إلى تونس صحبة والده سيدي عبد الجواد (مدفون حاليا في القطار) و"حطّوا" في الرقاب(التابعة لولاية سيدي بوزيد) أين تزوج وكان يتعبد تحت شجرة زيتون سميت فيما بعد زيتونة بابا عمر، وعندما شارف سيدي عمر على الوفاة أوصى أقاربه أن يحمل جثمانه على "بغلة"، قائلا:"إدَوني خلّي البغلة تغرّب، البركة(جلوس الحيوان) الأولى ثوروها والبركة الثانية إدفنوني" وقد كانت المحطة الثانية التي وصلت إليها(البغلة) هي المنطقة التي سميت حديثا بالقصر قفصة.

وهذه الأسطورة أو الرواية إن صحَ التعبير التي تصف وفاة شيخ العكارمة وكيفية قدومه إلى منطقة القصر من ولاية قفصة تأخذ مشربا دينيا تقديسيا، فعادة ما تعوّد الصوفية على الرغبة في الإنتساب إلى آل البيت والتأثر بالسيرة النبوية الشريفة لذلك وردت قصصهم ورواياتهم التاريخية مفعمة بالكثير من الصور والأحداث المشابهة لسيرة النبي(صلى الله عليه وسلم) أو أفراد عائلته، فالرواية العكرمية تؤكد حول وفاة جدَهم والتي تتضمن وصاية من الولي الصالح تقول بدفنه في المكان الثاني من توقّف "البغلة "، تتشابه هذه الرواية مع قدوم النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة المنورة وهو راكب ناقته، وعندما كثر الترحاب بسيدنا محمد من طرف أهل المدينة طلب النبي بأن يسمح للناقة بالراحة بعد سفرة متعبة، فأتخذ أهل المدينة من مكان وقوف ناقة الرسول (صلى الله عليه وسلم) فضاء للعبادة ألا وهو مسجد النبي محمد.

زاوية سيدي عمر بالقصر قفصة

وبذلك أعتبرت منطقة القصر قفصة الموطن الأخير لسيدي عمر بن عبد الجواد ومثلت هذه الضاحية الشرقية من مدينة قفصة الفضاء الجغرافي الذي إحتضن ضريح الشيخ سيدي عمر أين نصب مقامه الصوفي أو زاويته الشهيرة، وعند مماته رثاه تلميذه سيدي علي بن عون بقصيدة من الشعر الملحون مطلعها:

يا جحفة الشيخ طلت طلت على فجوج الثنايا ومالك يالعكرمي عمر ما عادت تجيب الثنايا

وتتضمن زاوية سيدي عمر بن عبد الجوّاد التي تتوسط مدينة القصر جامعا فسيحا يحمل فوقه قبة بارزة المعلم مقارنة بالزوايا الأخرى في المنطقة، حيث يذكر مثلا شعبيا وقع تداوله في هذه الفترة (القرن السابع عشر ميلادي)" أن القبة التي ترى من بعيد هي القبة التي تستقطب أكثر ما يمكن من السكان البدو".

أما فيما يتعلق بالطريقة الصوفية التي تتبعها زاوية سيدي عمر بن عبد الجواد فيمكن القول أن غياب المخطوطات والوثائق الخاصة بتاريخ أهل زاوية العكارمة بالقصر حال دون التأكد من هذه المعلومة أو تلك (المعلومة المستقاة من المستجوبين) خاصة المعطيات المقدّمة من طرف شيوخ الزاوية والتي نقلوها بدورهم عن طريق أجدادهم عن طريق نفس المنهج الشفوي دائما، أمام هذه الصعوبات التي ذكرت سلفا يمكن القول أن الجزم بإنتساب زاوية سيدي عمر بن عبد الجواد لإحدى الطرق الصوفية المعروفة كالقادرية أو التيجانية أو الرحمانية أو حتى لإحدى تفرعات هذه الطرق يعد أمرا صعبا ويتطلب الكثير من التدليل من أجل تأكيد مدى صحة هذا الإنتساب.

خريطة ولاية قفصة(المصدر: المندوبية الجهوية للتنمية الفلاحية بقفصة)

فالشيوخ المشرفون حاليا على مقام سيدي عمر بالقصر (من أهل الزاوية طبعا) سواء كان هذا الإشراف ذا طابعا رسميا (وكيل أو حفيظ) أو مجرد إشراف أدبي (شيخ علم يحظى بالإحترام ويثق العامة في ذاكرته الشعبية) يؤكد هؤلاء على أن زاوية سيدي عمر زاوية تتبع الطريقة الرحمانية عامة وتتبع الطريقة الحفوظية العزوزية كفرع من فروع الطريقة الرحمانية.

3.زاوية سيدي عمر فضاء سوسيو ثقافي:

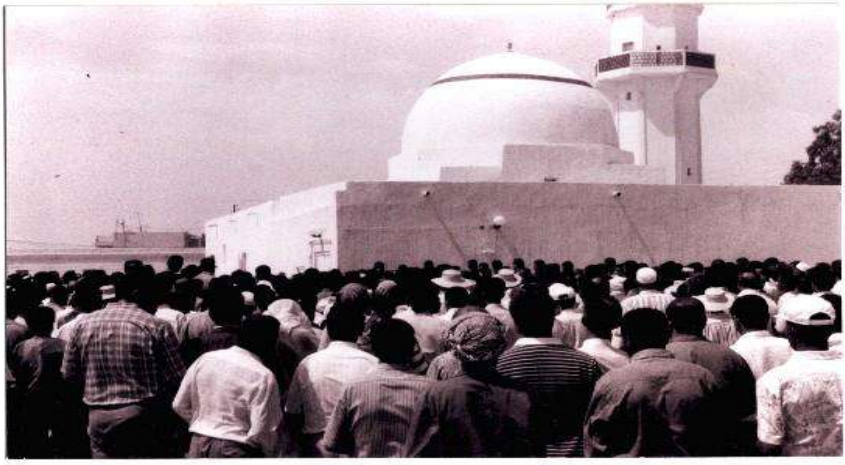

لذلك يمكن القول أن الزاوية ذات الأساس الديني تقوم بدور إجتماعي مهم فهي مؤسسة نفوذها الترابي واسع تؤطر الناس وتؤمنهم وتعظهم، وتسمح لهم بفضاء مليء بالعلاقات والرموز الإجتماعية، "وقد لعبت هذه المؤسسة الدينية الشعبية منذ بدايات تأسيسها بمختلف الجهات التونسية دورا هاما في إحتضان الفئات الضعيفة التي إستجارت بها، ومنها فئات العبيد والخمَاسة وغيرها"(محمد نجيب بوطالب، 1988)، وضمن الأجوبة التي تلقيناها من المستجوبين والتي تهم سؤالنا: ما هو الغرض من زيارة زاوية سيدي عمر؟ وجدنا أن 9% من هؤلاء يأتون لممارسة نشاط إجتماعي ذي صلة بالحياة اليومية خارج مؤسسة الزاوية.

فقد أكد هؤلاء على أن هذه الزيارة لسيدي عمر يمكن أن تمثل فرصة لربط علاقات إجتماعية جديدة ومع أناس جدد خاصة أن أغلبهم من ذوي النوايا الحسنة ويأتون إلى مقام طيب، كما أعرب العديد من هؤلاء عن حبهم ورغبتهم الشديدة في "اللمة" التي فقدت في أيامنا هذه، فساحة الزاوية هي عبارة عن فضاء رحب للرؤية والتعارف واللقاء بين الأفراد والجماعات.

تقول الباحثة صوفية الهمامي: "وفي إطار توسع الزاوية وتفتحها على وظائف جديدة في علاقتها بالفضاء الإجتماعي الذي تتحرك فيه خاصة مع تقلص وظائفها التقليدية، أصبحت المرأة تتمثل الزاوية فضاء للتضامن الطبيعي من خلال الربط بين النساء جميعا على إختلاف آفاقهن العلمية وانتماءاتهن الطبقية والجهوية وسنّهن، ذلك أن حضور النساء بالفضاء نفسه هو إيمان مشترك بقيم واحدة، ووحّد بينهن "جدّ واحد" هو الولي الصالح، وشدتهن إلى بعضهن البعض" الأخوة الدينية" وفي النهاية فإن العلاقة بينهن علاقة إجتماعية، كما تنطوي الزيارة إلى الزاوية على أهداف أخرى وحاجات نجد مكانها في عالم المرأة النسائي الآخذ في التفكك

والتلاشي ومن هذه الأهداف التبادل و التواصل اللذان إفتقدتهما المرأة تحت ضغط الحياة المدنية"(صوفية الهمامي، 2007).

كما وجدنا أن نسبة 2% من العينة المستجوبة يأتون إلى فضاء الزاوية بإستمرار من أجل نفس العمل الإجتماعي وهو التطوع وإعانة الزوار على إتمام أنشطتهم المعهودة داخل الزاوية خاصة فيما يتعلق بمساعدة الزوار الذين يأتون للمرة الأولى.

وتمثل زاوية سيدي عمر بن عبد الجواد أيضا فضاء لممارسة الحياة الإجتماعية المناسباتية مثل: زيارة العروس لمقام جدها قبل حفل الزواج وكذلك يأتي الطفل خلال حفل الختان مع أهله للتبرك بالمكان، فنحن في تونس بجميع أطيافنا كلما طرقت الفرحة أبوابنا (نجاح ،ولادة، عرس، حفل ختان) تجدنا تلقائيا ننشد "يا عاشقين رسول الله صلى الله عليه وسلم" التي نقشت على كل قلب: صغارا وكبارا متعلمين وجهّالا والتي تقول كلماتها:

إنزاد النبي وفرحنا بيه صلى الله عليه

يا عاشقين رسول الـــله صلى الله عليه

أوّل ما نبدأ بإسم الـــله صلى الله عليه

الهاشمي بن عبد الـــه صلى الله عليه

تفاعل ثقافي بين أجيال الزاوية

لقد عبرت مؤسسة الزاوية في الفترة الأولى من إنتشار المدّ الطرقي بالبلاد التونسية عن عائلة روحية متماسكة، عرفت بكثرة أنشطتها الإجتماعية وبدورها الريادي في نشر الآداب والقيم الأخلاقية والأساليب الجماعية للتربية عموما، فالأدب هو أحد مبادئ حياة الجماعة، حيث يقول عبد الرحمان الجامي (1492-1414) في كتابه نفحات الأنس " لكل شيء خادم، وخادم الدين الأدب"، "ومن آداب الصوفي أن يلتمس العذر دائما لإخوانه، وأن يعاملهم معاملة لا يحتاجون معها إلى أن يعتذروا له، وعليه أن يوسع حبه حتى يشمل كل الخلق، وإذا كان الله قد رضي بالبشر على ضعفهم وشقاوتهم عبيدا له فعلى الصوفي أن يرضى بهم إخوانا له" الجامي (عبد الرحمان الجامي، 1989، ص261).

كما ليس للدراويش (الصوفية) أن يقولوا أبدا:" نعلي أو لأي شيء ملكي، فإنه لا تنبغي لهم الملكية الخاصة، فإذا كان لأحد شيء فعليه أن يعطيه إخوانه، وإلا فإنه يفقد درجته الروحية"(عبد الرحمان الجامي، 1989، ص261) وخدمة الإنسان كانت دائما هي أولى الخطوات في الدرجات المؤهلة للطريقة، "إلا أنها تبقى واجب الصوفي في طيلة حياته، لأنه من إعتذر عن خدمة إخوانه فأن الله يضع من شأنه فلا يشمله العفو"(عبد الرحمان الجامي، 1989، ص260)، كما مثلت مؤسسة الزاوية ولفترة طويلة وحدة روحية متماسكة هدفت بإستمرار إلى نشر القيم الأخلاقية السمحة بين الناس، وإلى تهذيب السلوك الفردي والجماعي لأهل الصوفية يقول الجريري في هذا الإطار: "التصوف هو الدخول في كل خلق سنَي والخروج من كل خلق دني"، كما يبيَن القصاب الوظيفة التربوية والأخلاقية للزاوية من خلال قوله: "التصوف هو أخلاق كريمة ظهرت في زمن كريم من رجل كريم"(أبو القاسم القشيري، 2001، ص551- 552).

وقد إقتدى الصوفية في جميع سلوكياتهم بصفات النبي محمد(صلى الله عليه وسلم) الكريمة والذي كان يدعو دائما أصحابه وأحبابه إلى التطبع بالأخلاق الطيبة ومعاملة الناس الآخرين في أبهى صورة لأن ذلك يعبر عن سلوك المسلم الصادق، وهو ما يتضح في الحديث النبوي الذي يقول فيه: "ألا أدلكم على أشرف أخلاق أهل الدنيا: تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك وتصل من قطعك "(حديث رواه ابن ابي الدنيا و الطبراني)، فالتصوف هو الخلق وجماع الكلام فيه يدور حول قطب واحد، وهو بذل المعروف وكف الأذى، وإنما يدرك ذلك في ثلاثة أشياء: في العلم والجود والصبر، "وهذا الصبر يستند بالأساس إلى المعرفة بمقام الخلق حتى: يأمن الخلق منك حتى الكلب ومحبَة الخلق إيَاك، ونجاة الخلق بك"(أبو إسماعيل الهروي ، 1966، ص21).

كما كانت مختلف المدارس الصوفية الإسلامية تحث مريديها وفقرائها على التحلي بصفة الإيثار تقيدا بقوله سبحانه وتعالى "ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة"(الاية9، سورة الحشر، القرآن الكريم)، نظرا للقيمة الإيمانية والأخلاقية لهذه الصفة داخل شخصية المسلم الصادق ، فالإيثار تخصص وإختيار والإثرة تحسن طوعا وتصح كرها وهو على ثلاثة درجات: الدرجة الأولى أن تؤثر الخلق على نفسك فيما لا يحرم عليك دينا، ولا يقطع عليك طريقا ولا يفسد عليك وقتا ويستطاع هذا بثلاثة أشياء، بتعظيم الحقوق ومقت الشح والرغبة في مكارم

الأخلاق، الدرجة الثانية: إيثار رضا الله على رضا غيره والدرجة الثالثة: إيثار في الله تعالى، فإن الخوض في الإيثار دعوى في الملك.

وعند المقارنة بين جنسي الذكور والإناث المنتمين للعينة المدروسة في إطار الحديث عن مسألة العلاقات الإجتماعية يمكن ملاحظة تفاوتا شاسعا بين الفئتين حول أهمية البحث عن الروابط الإجتماعية داخل فضاء الزاوية، ففي حين توقفت النسبة عند الرجال في حدود ال**4%** أو أقل بقليل، تصل هذه النسبة عند النسوة إلى حدود ال**15%**، و يمكن تفسير ذلك الفارق أو الإختلاف في السلوك إلى أن الرجال عادة ما يركزون في زيارتهم لزاوية سيدي عمر على ممارسة الطقوسات الروحية من صلاة وحضرة وقراءة القرآن أكثر من بحثهم على إكتشاف شخصيات جديدة وإقامة علاقات معها، في حين تعيش داخل المرأة غريزة الفضول وإكتشاف الغيب والمجهول لذلك تجدها تجتهد في التقرب من الآخرين لربط علاقات معهم وربما بحثا عن الإطلاع عن أسرار حياتهم الأسرية والشخصية.

لقد أكدت نسبة **5%** من النسوة أنهن يأتين إلى مقام سيدي عمر بن عبد الجواد لمجرد الزيارة فحسب، أي ليس لهن غرض واضح ومسبق من هذه الزيارة، وربما يفسر هذا السلوك برغبتهن في تقليد النساء الأخريات المتعودات على الحياة الصوفية، كما يمكن أن يرتبط هذا السلوك برغبة المرأة في إكتشاف هذا الفضاء الديني "الساحر". تنحدر هذه النسبة عند جنس الرجال إلى **0%** وهو أمر طبيعي إذا ما إعتبرنا أن الرجل يجد في مصطلح "مجرد الزيارة" مضيعة للوقت وليس من أخلاق الرجل أن يأتي ليمضي الكثير من الساعات داخل هذا المقام الطيب لمجرد هدر الوقت أو "التفرّج" على عباد الله.

وهذا البحث عن الإنتماء من خلال دخول زوار الزاوية في شبكة العلاقات الإجتماعية المتاحة داخل هذا الفضاء الديني يفسر بتغير العلاقات الإجتماعية المعاصرة نحو درجة أكثر سوء وذلك يتجسد في تفكك الروابط القبلية والأسرية التقليدية، وهذا ما لاحظناه بين المجموعات الصغرى المكونة لفرقة العكارمة(عكارمة الزاوية بالقصر، فرع عكارمة الصحراء بالمظيلة وعكارمة الصحراء بالرقاب)، وتفسيرنا لتفكك هذه الروابط التقليدية هو إختلاط الأنساب بتداخل علاقات المصاهرة وتمدّن البدو وما واكبه من تغير على المستوى القيمي والأخلاقي، كما أن الإعتقاد في الأولياء الصالحين و في فكرة الجد المؤسس أصبح ضعيفا لدى الأجيال الجديدة حتى من أبناء الزاوية أنفسهم.

يصف الشاعر المشهور علي بن عبد الله القصري في قصائده فساد الحياة الإجتماعية وتغير القيم بتغير الأجيال، وهو ما قوّى بروز النزعات الفردية بين المواطنين في جهة القصر قفصة قائلا:

" حكم الشريعة تعطّل والزرب سد الثنـــية

الجار في الجار يختل بنزعـــات زفته خفيه

ولا عاد صـادق يعدل عنتيت صـاحب مزية

ولا عاد ناصح يوصل حقوق اليتيم و الولية ." المرزوقي (محمد المرزوقي، 1972، ص207).

هذا التقلص في حجم العلاقات الإجتمـاعية بين مختـلف المجموعـات الإثنية "الهمَامية" التي لها علاقة بزاوية العكارمة من قريب أو من بعيد، لم يمنع تواصل بعض صور الترابط الإجتماعي والثقافي بين هذه المجموعات، وهذا يظهر خاصة في تمسك العكارمة بأصولهم البدوية و ببعض القيم النبيلة (الكرم ، صلة الرحم ، التضامن الإجتماعي).

وقد يلمس الزائر لزاوية العكارمة ذلك من خلال بعض المشاهد الواقعية كحمل الهدية أو" الزيارة " من قبل عكارمة الصحراء والتي تعطى لأهل الزاوية خوفا من التقاليد الأسرية، كما يحظى الوافدون بترحاب عظيم يتلقوه من ذويهم وأقاربهم في القصر ويتمتعون "بتسهيلات" عند ممارستهم لعقائدهم الدينية(مثل زيارة الثابوت والمكوث لفترة مطولة بجانبه)، كما يمكنه أن يلاحظ ملاحظة جلية وهي مساعدة المتطوعين (عادة ما يكونوا من العكارمة) للمرضى ولأهاليهم كذلك، سواء عند تحركهم داخل فضاء الزاوية أو عند تحضيرهم لخوض تجربة الحضرة لغرض التخلص من الداء النفسي الذي سكن أجسادهم.

في نفس الإطار يتحدث الشاعر القفصي عامر بوترعة (1998-1947) عن تمسك الفرق المختلفة المكوّنة لعرش الهمامة بأصولها البدوية و بإعتزازه هو أيضا بهذا الإنتماء قائلا:

" لأن أبي منذ أن كـــــــــــــــان

راع

سلالة جد هوايته المـــــــــــراعي "(أبو القاسم محمد كرو، 2004، ص193).

إن الإعتقاد في ولي صالح محدّد والإنتماء لزاويته والإلتزام بطقوسها ومسلكيتها أمرا مهما في إنتساب الأفراد وتموقعهم الإجتماعي ولإعطاء صورة لامعة وواضحة عن هوية المجموعة محليا سواء داخل فضاء الزاوية أو خارجها وكذلك لإبراز خصوصيتهم الثقافية التي تميزهم عن المجموعات الأخرى، ولتحقيق هذا البعد السوسيو ثقافي نجد أن العديد من الأفراد يقبلون إقبالا واسعا في الإنخراط في الزاوية وفي الطريقة الصوفية التي تمجَدها هذه المؤسسة الدينية.

هذا الإنخراط الذي يكون عـادة خاضعا للعلاقـات التي ولدتها في الحياة اليوميـة المصـالح والصداقات والقرابة، ونتج أيضا عن طموح الأفراد في كسب مستوى من النفوذ وإحتلال موقع في شبكة العلاقات الواسعة التي تتجاوز حدود الجماعة المحلية بما يعني ذلك من فتح لأبواب الرقي الإجتماعي وتحسين الأوضاع، "وقد أدى ذلك إلى تغيير نوعية العلاقات بين الأفراد داخل هياكل المؤسسة الطرقية وإلى ظهور رهانات جديدة تدعو إلى التنافس والتنازع وتضاءلت

مظاهر عزلة الجماعة المحلية مقابل تدعم مؤشرات إندماجها في محيط أوسع وتمتّنت روابطها مع جماعات وجهات أخرى"(مصطفى التليلي، 2000، ص335).

خاتمة:

إن دراســـة الحيــاة الاجتماعية والثقافــية داخـل الزاويــة يتطـلب أكثر من بحث وأكـثر من تخصص لوفرة المعـاني والرمـوز الثقافيــة التي يكتنفها هذا الفضاء المليـئ بالتفــاعلات والأحاسيس المشتركة والمتعارضة في ذات الوقت، كما أن البحث في تواصل التفاعلات الإجتماعية والثقافية من خلال إستمارة المقابلة وقفت سندا لنا في محاولة فهم مجتمعنا التونــسي مـن الداخل وبصورة موضوعية لتجنّبنا مختلف الإسقاطات والأحكام المسبقة التي إعتدناها في أغلب البحوث السوسيولوجية والأثروبولوجية الغربية، ومن أهم نتائج هذه الدراسة الميدانية:

-إن تغيّر هذا المجتمع المحلي (بلدة القصر) بمختلف فئاته الأصلية والدخيلة من ناحية الفكر والثقافة، وتفتح العائلات على بعضها البعض عبر علاقات إجتماعية مختلفة لم يحل دون تواصل ظاهرة الإعتقاد في الأولياء الصالحين، فهذا المجتمع المحلي ورغم ضيق منطقته الحضرية فإنه يحتوي على ثمانية مقامات دينية خاصة بالأولياء الصالحين (سيدي عمر، سيدي عبد الملك، سيدي بادي، سيدي مقدم، سيدي بونوارة ، سيدي حاج عمر، سيدي عبّاس وسيدي سلامة)، ويعتبر مقام سيدي عمر بن عبد الجواد أشهرها بإعتباره " سلطان الجان" وهو ما شد إليه الكثير من الزاور والوافدين .

-الخصوصية الثقافية التي تميّز كل جماعة إنسانية مهما كان حجمها ومهما كانت طبيعة هذه الجماعة أو درجة تحضّرها وتقدّمها، وهو ما لمسناه لدى فرقة العكارمة بالقصر قفصة فلهذه الفرقة الإثنية ثقافتها وتاريخها الخاص بها، حيث يتميّز أفرادها بمجموعة من المعتقدات الدينية والتصورات والقيم والطقوسات، كما يتبادل أعضاءها خطابا لغويا يختلف عن بقية المجموعات البشرية المكوّنة لمنطقة القصر قفصة، وهذه الخصوصة الثقافية أنتجت بدورها خصوصية في الرموز والدلالات الكامنة داخل هذه الثقافة.

- تحوّل وتغيّر فضاء الزاوية: لقد أثبتت هذه الدراسة الميدانية التي أنجزت حول زاوية العكارمة بالقصر أن هذه المؤسسة الطرقية قد عرفت تحوّلا واضحا في وظائفها من زمن تأسيسها إلى اليوم، فقد تغيرت وظائفها من فضاء للتبرك بالشيخ وممارسة المعتقدات إلى فضاء إجتماعي وثقافي وإقتصادي ينتج علاقات التبادل المادية والرمزية ويفسح المجال لإعادة إنتاج العلاقات المجتمعية داخل هذا الفضاء والحديث يهم علاقات العمل والزواج وإستراتيجيات الربح والإستغلال والتفاوت المادي والإجتماعي .

قائمة المراجع

1. أبو إسماعيل الهروي(1966)، منازل السائرين إلى الحق عزّ وشأنه، شركة مكتبة و مطبعة مصطفى الجبالي وأولاده ، ط2، مصر.
2. أبو القاسم محمد كرو(2004)، شعراء قفصة (في 11قرنا)، نشر وتقديم جمعية صيانة مدينة قفصة، تونس.
3. أبو القاسم القشيري(2001)، الرسالة القشيرية في علم التصوَف، تحقيق وإعداد معروف مصطفى زريق، ط1، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.
4. إرنست كلنير(1988)، السلطة السياسية والوظيفة الدينية في البوادي المغربية في الأنتربولوجيا والتاريخ حالة المغرب العربي، ترجمة عبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء
5. أنا ماري شيمل(200)، الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوّف، ترجمة محمد إسماعيل السيد، رضا حامد قطب، منشورات الجمل، ط1، ،كولونيا(ألمانيا)، بغداد.
6. التليلي العجيلي(1992)، الطرق الصوفية والإستعمار الفرنسي بالبلاد التونسية (1881- 1939)، منشورات كلية الآداب بمنوبة، تونس.
7. شارل أندريه جوليان(1976)، إفريقيا الشمالية تسير، الدار التونسية للنشر.
8. صالح السيباني(2008)، الرباطات الإسلامية في ليبيا حسب ما ذكره الشريف الإدريسي وأثرها الثقافي، المؤتمر العاشر للجمعية التاريخية.
9. صوفية الهمامي(2007)، ما تطلبه النساء في حضرة الأولياء، موقع إلكتروني تحت عنوان "موقع الجيل الثقافي" بتاريخ 2007/3/2
10. الضاوي خوالدية(1994)، الذوات والأسر التونسية في القرن التاسع عشر من خلال إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان لأحمد إبن أبي الضياف"، تونس.
11. عبد الرحمان الجامي(1989)، نفحات الأنس من حضرات القدس، نشر الأزهر الشريف، القاهرة.
12. محمد نجيب بوطالب(1988)، الأوضاع الإجتماعية لفئات العبيد بالبلاد التونسية في القرن "19، ضمن أعمال وحدة البحث حول الفئات الشعبية، بيت الحكمة، تونس.
13. محمد نجيب بوطالب(2002)، القبيلة التونسية بين التغير والإستمرار، الجنوب الشرقي من الإندماج القبلي إلى الإندماج الوطني"، كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية بتونس.
14. محمد المرزوقي(1972)، تاريخ قفصة وعلمائها" بقلم نخبة من الأساتذة، دار المغرب العربي، تونس.
15. مصطفى التليلي(2000)، قفصة والقرى الواحية المجاورة حول الحياة الجماعوية (من بداية القرن18 إلى1881)"، نشر وتوزيع جمعية صيانة مدينة قفصة.
16. المنجد في اللغة (1969)، ط 20، دار المشرق، بيروت، لبنان.
17. Dermenghem (Emile)(1954), Le culte des saints dans l'Islam Maghrébin, Gallimard, Paris, 2è edit
18. Corbin (Henry)(1969), Creative Imagination in the Sufism of Ibn Arabi , trans from French by Relf Manbeim , Princeton University Press.
19. Crozier (M) ; Friedberg (E)(1977), L' Acteur et le système ; les contraintes de l'action collective, Paris, édit Seuil .

20. Kilani (Mondher)(1992), La construction de la mémoire ; le lignage et la sainteté dans l'oasis d'Elksar ; Labor et Fides ,Genève.